الفصل الرابع

مقوّمات المجتمع: الجنس

سنعالج في هذا الكتاب ثلاث نظريات في موضوع مقومات المجتمع وهي : نظرية الجنس (Race) ، ونظرية البيئة ، ونظرية الاقتصاد .

اما نظرية الجنس (أو العنصرية) ، فانها تذهب الى القول بان : وحدة الجنس أساس الحياة الاجتماعية ، وأن كل عنصر يقوّم مجتمعه بمقتضى طباعه وخصائصه الموروثة ؛ بل إن غلاتها يذهبون الى أبعد من ذلك ، فيزعمون أن المجتمع لا وجود له وانما الموجود هو وحدة الجنس التي تكافح في سبيل البقاء ، وان لكل مجتمع حضارة خاصة ، هي وليدة المواهب والخصائص الفطرية التي يتميز بها كل جنس عن غيره ؛ وأن خير سبيل لحماية الجنس وصيانة حضارته وضمان تقدمه ، المحافظة

على نقاوة دمه ؛ وأن أعظم ما يؤدي بالجنس الى الاضمحلال ، اختلاطه باجناس غريبة عنه . وأغلب الآخذين بهذه النظرية ، ينتهون بها الى تمجيد العنصر الذى ينتمون اليه ، باعتبار أنه موجد الحضارة والجدير بحمل لواء التقدم والأخذ بقياد الاجناس الأخرى والسيطرة على العالم . واليك مقتبسات من أقوالهم نوردها على سبيل الايضاح[1] :

يقول « ماديسن كرانت » (Madison Grant) وهو من الامريكيين ، « علينا أن نوقن أولا ، ان الجنس النقى المحض ، باعتباره قوام التركيب العضوي والنفسي فى الانسان ، والذى لا صلة له بالقومية واللغة ، هو مبعث كل مظاهر الحياة فى المجتمع الحديث ... كما كان منذ الأزل . ان نواميس الطبيعة تسرى فى شؤون الانسان ، بعين الدقة التى تسرى بها فى عالم الجماد . فقد ثبت لدينا ، منذ أن أوضحت قوانين « ماندل » (Gregor Mendel) فى الوراثة ، أن خصائص الجسم تنتقل بالوراثة حسب قواعد ثابتة ، وأن السجايا المتآلفة والمجتمعة فى الأجناس النقية ، قد يجتمع بعضها بما يخالفه ، بطول الاتصال بين أجناس متباينة ، فيخرج تراكيب غير متسقة ، بحيث ترى ، مثلا ، أمرأة سمراء مديدة القامة أو شقراء قصيرتها ، أو أن ترى عيونا زرقاوات مع شعر غامق اللون ، أو عيونا نجلاوات مع شعر أشقر ... (الى أن يقول) ان الطبيعة لا يعنيها الفرد وما تحدثه البيئة فيه من

(١) وهى مقتبسة عن Brady .

تغيير ، وانما الوراثة هي الوسط الوحيد الذى تسرى فيه نواميسها[٢] » .

ويقول « كروس »(W.Cross) أحد كتاب الجرمان النازيين : « ان علمي الحياة والطب ، قد أعلمانا منذ ثلاثين سنة ، أن أثر الوراثة ، فى خصائص الانسان الجسمية والروحية ، أعظم بكثير من مجموع مؤثرات البيئة ، سواء منها ما يتعلق بالمعيشة أو التربية الفكرية أو البدنية ؛ لأن هذه المؤثرات الخارجية يتوقف فعلها كلها على الخصائص الموروثة الملائمة لها ؛ فليس فى استطاعة أحد أن يبدع صفة موروثة لمن لا يملكها ، أو أن يجتثها ممن يتصف بها . » .

وجاء فى أحدى النشرات النازية (*Why The Aryan Paragraph*) « ان الفكر والشعور لا يمكن أن يتجاوزا مطلقا ، حدود استعداد الجنس الفطرى . » .

وقال « فريك » وكان وزير داخلية المانية النازية « ان اختلاط الأجناس ، وما ينجم عنه من انحطاطها ، هو السبب الوحيد فى اندثار الحضارات القديمة ، فالشعوب لا تموت بخسرانها المعارك ، وانما يغلبها الاضمحلال عندما تفقد قابلية المقاومة الكامنة فى الدم النقي . وكل ما فى العالم ، مما لا يمت بصلة الى نقاوة الجنس ،

(٢) راجع كتابه : (*The Passing Of The Great Race*)

انما هو خسيس وتافه . والتاريخ ليس الا ظاهرة الكفاح بين الأجناس في سبيل البقاء . » .

وقال آخر من كتاب النازية : « ان الدم مقوّم البدن ، وينبوع الروح في الجنس ؛ به يخلد تراث الأجداد ، وفيه تكمن خصائص الجنس ، ومنه تخرج صفات الرجال ، وبه تقرر مقدراتهم . ان الدم النقي هو الدافع الخفي ، وهو معين الحياة الذي يخرج به الانسان الى فضاء النور والروح والعرفان . »

والفكرة التي تنطوي عليها نظرية وحدة الجنس ليست حديثة ، وربما ترجع في الأصل الى التمايز ونزعة التفاخر القبلي ، وقد تجلت في آراء « أرسطو » الذي قال ان الفروق بين الأحرار (Freemen) والعبيد (Slaves) ، ترجع الى الطبيعة التي أعدت بعض الامم الى السيادة وبعضها الى العبودية ، فألقت على الأولى أعباء الحكم وخصت الثانية بنعمة الخضوع . وقال ان المنازعات العنصرية ليست ظواهر تاريخية أو اجتماعية وانما مرجعها مشيئة الله أو حكم الطبيعة ؛ وأن لا جدوى من محاولة احلال المساواة في محل عدم المساواة بين الأجناس بوساطة التربية أو بالمساعي الاجتماعية أو بطريق الثورات ، وانما السبيل الوحيدة لتسويه المنازعات العنصريه هي سبيل التوافق الطبيعي الذي يتم باستسلام الامم السافلة ، لمصيرها المفروض عليها بحكم القوانين الأزلية ، باعتبار أن التعصب العنصري طبع متاصل في

الانسان ولا سبيل الى تجنب المنازعات التى تنشأ عنه الا سبيل الرضوخ لحكم القدر . وقد أورد « أرسطو » هـذه الآراء معارضا بها رأي السوفسطائيين الذين قالوا ان الفوارق بين الاحرار والعبيد لا أساس لها فى الطبيعة ، وانما هي بدع اختلقها الانسان ؛ وان العبودية حال فرضتها القوة ولهذا فانها لا تقوم على أساس من العدل .

ويرجع آخرون فكرة العنصرية الى عوامل تاريخية نشأت عن هجرة الأقوام واغتصابها بلاداً تقطنها أقوام أخرى ، وتأسيسها دولاً تولت هي الحكم فيها وفرضت على سكانها الأصليين نظام العبودية . وكان طبيعياً أن تحتكر الأقوام الغالبة لنفسها جميع أسباب الرفاهية والتقدم فتحرم منها الأقوام المغلوبة على أمرها وتسوقها الى السفالة فتزدريها ؛ ومن ثم ترى نفسها وقد تحسنت شؤونها الاجتماعية وارتقت أحوالها وكأنها أصبحت تمتاز بخصائص نفسية وعقلية عن تلك الأقوام المضطهدة التى هوت الى دركات التأخر واستقرت فى حضيض العبودية . ويقوم كتّابها ومفكروها فيصورون هذه الفوارق المصطنعة بانها فوارق أصلية مرجعها مشيئة الله أو حكم الطبيعة ، ليجردوا الاقوام المغلوبة من ثقتها بنفسها ويحملونها على الاستسلام لأحكام الواقع باعتباره امراً محتماً لا مردّ له ، حتى ليزعمون أن العبودية فى مصلحة الأقوام المستعبدة التى هي عاجزة عن حكم نفسها وتدبير شؤونها ، فلو ترك أمرها اليها لساءت حالها وصارت الى الفناء ، وأر

السيادة عبء ألقي على كاهل الأقوام المتفوقة وواجبها أن تقوم بهذا العبء فتؤدى رسالتها فى الحياة .

وحاول بعض الكتاب والمفكرين ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أن يفسر الطبقات الاجتماعية بانها ترجع فى الأصل الى التفوق العنصري . فارجع « بولينفيير » (Henri de Bovlainvilliers) الأرستقراطية الفرنسيه باعتبارها الطبقة الحاكمة فى فرنسه الى الفرنكيين » الجرمان ؛ وجمهور الفرنسيين الذين يؤلفون الطبقة المحكومة ، الى « الكلتيين » باعتبارهم سكان فرنسه الأصليين الذين غلبوا على أمرهم . وفسر « سييّه » (Joseph Emmanuel Sieyes Abbe) ، فى الكتيب الذى نشره عام ١٧٨٩ وعنوانه (*Qu'et-ce que le tier-état*) ، الثورة الفرنسية بأنها تعبر عن مسعى الطبقة المحكومة من سكان فرنسه الأصليين لطرد الفاتحين الفرنكيين الذين يؤلفون الطبقة الحاكمة واستعادة الحكم الذى اغتصبوه . وزعم « كوبينو » فى كتابه (*Essai sur L'inégalité des races Humaines*) الذى أصدره باربعة مجلدات بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٥ ، أن الطبقات الحاكمة فى أوربة ترجع كلها الى « الفرنكيين » الجرمان ، وهو الجنس الممتاز الذى أنشأ الحضارة .

وكان من أشد غلاة نظرية الجنس ، الكاتب الألمانى « تشامبرلين » (Houston Stewart Chamberlain) الذى حاول فى كتابه

(*The Foundations of the Nineteenth Century*) الذى نقل الى الانكليزية عام ١٩١٠ ، أن يثبت بأن العنصر الجرمانى هو الذى أنشأ الحضارة الأوربية ؛ وأن انهيار الحضارات القديمة ، وخصوصا حضارتي الاغريق والرومان ، انما مرجعه امتزاج الأجناس التى أنشأت هذه الحضارات باجناس غريبة عنها . وقال أن مصير الحضارة الحاضرة منوط بمحافظة الجرمان على نقاوة عنصرهم . وقد قسم الأجناس الى مختارة (élite) منشئة بطبعها وقطيرة ومدمرة بطبعها ؛ واعتبر الجنس الجرمانى فى رأس قائمة الأجناس المختارة المنشئة واليهود والزنوج فى رأس قائمة الأجناس المدمرة . وانتهى الى القول بان من صالح الانسانية ومن مصلحة الأجناس الأخرى ، أن تكون السيادة فى العالم من نصيب الأرستقراطية الجرمانية المنشئة . وقد تبنت النازية آراء « تشمبرلين » هذه واتخذتها أساساً لسياستها العنصرية .

وهكذا ترى كيف قوم الاستغلال فكرة التفوق العنصري ، وكيف سارت هذه الفكرة فى جميع أدوار التاريخ ، القديم والحديث ، فى ركاب التوسع والفتوح والاستعمار . ففى العهد القديم ، فى أدوار الزراعة البدائية ، كانت الأقوام التى تهيأت لها أسباب الغلبة تغتصب البلدان ، فتختار الخصيب من ارضها ، وتترك القاحل منها للأصليين من السكان أو تفرض عليهم العبودية ، فتفرض عليهم من جراء ذلك

سفالات الفاقة والحرمان والجهالة . وفى العهد الحديث ، قام الاستعمار بمختلف أشكاله ووجوهه ، بما قامت به الفتوح وما فرضه التوسع من ظواهر الفوارق بين الشعوب ، حتى بدت هذه الفوارق وكأنها أصلية وطبعيـة .

وفكرة التفوق العنصري والتمايز بين الأجناس ، وان بلغ الغلو فيها الأوج فى عهد النازية ، التى استغلتها لاستثارة حمّى التوسع والاستعمار ، ولاشغال الشعب عن التبرم بما كان ينوء تحته من ويلات الاستغلال ،ولتوجيهه عن الصراع الطبقي الداخلى الى العدوان ، فانها تقوم اليوم ، بدرجات متفاوته من القوة والشدة ، فى جميع البلدان الرأسمالية وفى جميـع الأقطار التى يقـوم النظام فيها على أسـاس الاستغلال . ففى أفريقية الجنوبية حيث تعيش أغلبية من الأفريقيين ، مستضعفين وفى ظل اضطهاد عنصرى لا مثيل له ، تقوم فكرة التفوق العنصري بحكم القانون ، كما كان الحال فى آلمانية النازية . وفى أميركة ، التى تعيش فيها أقلية كبيرة من الزنوج وأقليات أخرى من الصينيين واليابانيين والشعوب الآسيوية الأخرى ، تقوم فيها فكرة التفوق العنصري والتمايز بين الأجناس بحكم الواقع ، فترتكب باسمها فظائع تقشعر منها الأبدان من دون أن يجد التشريع الأميركي وسيلة لوقفها أو القضاء عليها . وهكذا الحال فى جميع البلدان ، تتناسب قوة هذه النزعة فيها مع درجة سعة المصالح الاستعمارية ومطامح التوسع

الاقتصادي وتباين وجوه الاستغلال واشتداد التناقض في نظام الاجتماع .

وليست هذه الفكرة في ظل النظام الصناعي الرأسمالي مقصورة على الرأسماليين فحسب ، وانما هي متأصلة في طبيعة النظام ، فهي ليست وسيلة يلجأ اليها عند الحاجة فقط وانما هي تتغلغل حتى في صفوف طبقة العمال وأفراد الطبقة الوسطى حيث تواجه جماعات الطبقتين في الأقليات الغريبة والمتأخرة منافساً قوياً بالنظر لانخفاض أجور العمال من أفراد هذه الأقليات ؛ وبالنظر كذلك لانخفاض مستوى معيشة هذه الأقليات وتقتيرها على نفسها في أسباب العيش . ولقد بدت هذه الظواهر في انكلترا ، وفي فجر الثورة الصناعية فيها ، عندما كان العمال من الفرنسيين والهولنديين والبلجيكين وغيرهم يؤمون بريطانية طلباً للرزق فيعرضون أنفسهم للعمل باجور أقل من أجور العمال الانكليز . أما في اميركة ، فلا ريب في أن التفاوت في أسعار العمل وفي مستويات المعيشة والبذل تكوّن السبب الرئيسي في تغلغل التعصب العنصري فيها ، ذلك التعصب الذي لا يقوم بشكل الارهاب الجماعي في حوادث المنازعات ويحرم العمال الزنوج من حق الانتماء الى النقابات والمشاركة في مرافق الحياة الاجتماعية والمساواة في كسب الكفاية الفنية والصناعية فحسب ، وانما يحرمهم

حتى من حق المساواة أمام القانون[٣] .

وفيما عدا موضوع العنصرية ، على الوجه الذى عرضناه فى هذه الخلاصة ، والذى يرجع اليه ما أشيع فى الناس من نعرات التعصب التى لاتقوم على أساس فى العلم ، فان موضوع التفاوت فى هيئات الناس لفت نظر علماء الحياة والانسان منذ زمان ، فجعلوه موضوع درس وتمحيص . وسنعرض فى الأقسام الآتية من هذا الفصل ، خلاصة دراساتهم بالكيفية التى عرضها « كنزبرك »[٤] ، فى أقسام ثلاثة : فنخصص القسم الأول لموضوع تعريف « الجنس » وتعدد أجناس البشر ، لنرى اذا كان لهذا التعدد وجود حقيقي . ونخصص القسم الثانى لموضوع التفاوت المفروض بين الأجناس من حيث صلته بالتكوين العقلى لنرى اذا كان هنالك تفاوت عقلى بين هذه الأجناس ، ومدى تأثير هذا التفاوت ، ان وجد ، فى التكوين الفكري للامم وللشعوب . ونعالج فى القسم الثالث موضوع الصلة بين تعدد الأجناس ونشوء الحضارة .

* * *

ويعرّف علماء الانسان ، الجنس بانه مجموع من الأفراد كبير ، يتميز عن غيره بخصائص جسمية موروثة . ولأجل أن تعتبر

(٣) راجع مقال Hans Kohn ، فى موضوع *Social Conflict* فى دائرة معارف العلوم البريطانية .

(٤) Ginsberg ، الفصل الثالث .

خصائص الجنس من مميزاته ، فانها لا يقتضي أن تكون عامة فحسب وانما يجب أن تبقى ثابتة على تعاقب الأجيال واختلاف البيئات • فقد تبدو خصائص معينة فى هيئة اعضاء عائلة ما ، يشترك فيها الوالدون وأولادهما والاخوان وأخواتهم ، لكن هذه الخصائص لا تجعل العائلة جنساً ؛ ومن ثم فان هذه الخصائص قد تظهر فى جيل وعقبه ، لكنها لا تثبت على تعاقب الأجيال •

وأول ما أوحى بفكرة تعدد الأجناس ، ظواهر الاختلاف بين الاقوام ، فاتخذت هذه الظواهر أساساً للقول بتعدد أجناس البشر • وأهم هذه الظواهر : أولاً ، لون البشرة والشعر والعون • وثانياً ، شكل الشعر : المستقيم والناعم والأحجن أو المعقّق (wavy) والمجعّد (curly) والصوفاني (woolly) • وثالثاً ، شكل الرأس باعتبار نسبة طوله الى عرضه : المستطيل والبيضوي والمستدير • ورابعاً ، القامة وتناسق الأعضاء • وخامساً ، ملامح الوجه وتقاطيعه ، باعتبار شكل الأنف والشفاه والجفون •

ولم يعتمد علماء الانسان فى الغالب على صنف واحد من هذه الظواهر الجسمية فى تصنيف الأجناس ، وانما اعتمدوا على تركيب عدد منها • فصنف «بلومنباخ» (Johann Friedrich Bhumenbach) أجناس البشر فى خمسة وهي القوقاسى والمغولى والحبشى والأميركى (الأصلى) والملايى ، وذلك اعتماداً على لون البشرة وتقاطيع الوجه

وشكل الشعر والرأس • وصنفها « هكسلي » في خمسة أجناس أيضاً هي : الأوسترالي (الأصلي) والزنجي والأصفر (Xanthochroic) والمغولي والأصفر ذو الشعر القاتم (Melanchroic) • وصفها « دنيكار » (Joseph Deniker) على الأساس عينه ، في سبعة عشر جنساً وتسعة وعشرين فرعاً • وصنفها « روكاري » (Giuffrida Ruggeri) في ثمانية أجناس وثلاثة وأربعين فرعاً ؛ بينما اعتبر « هادون » (A.C. Haddon) الأجناس الأصلية ، ثلاثة منقسمة الى ستة وثلاثين فرعاً •

ومع أن اختلاف الآراء في تصنيف الأجناس على هذا الوجه ، يثير بذاته الشك في صحة الرأي القائل بتعدد أجناس البشر أصلاً ، فان علماء الحيوان ، وتؤيدهم أغلبية علماء الانسان ، لم يقم لديهم دليل يثبت قطعاً ، تعدد أجناس البشر • فالاختلافات الظاهرة بين أصناف الجنس البشري لا تقوم على قواعد ثابتة وأصلية • ففي جميع الأجناس المفروضة ، يجد المرء شذوذاً في عدد كبير من أفراد هذه الأجناس عن المميزات التي فرض أنها تميز جنساً عن آخر ؛ كأن نرى رأساً بيضوياً مع بشرة سوداء ، أو شفاها غليظة أو أنفاً أفطس مع بشرة بيضاء ، أو شعرا مستقيما أو ناعما أو معقّفاً أو مجعداً أو صوفانياً مع بشرةأو تقاطيع وجه لا تنسجم معها مجتمعة على خلاف القاعدة المفروضة • بل ان هذه الخصائص المفروضة تبدو باغلب

مظاهرها فى كل جنس ، وفى حالات لا حصر لها ، فلون العيون أو شكل الشفاه أو الشعر مثلا ، تكاد تختلف باختلاف الأفراد فى الجنس الواحد . وفى الواقع ان جمجمة لراس انسان لو قدمت لأخصائى ، استطاع ان يقطع بالجنس الذى تعود اليه . وبالرغم من أن العلماء حاولوا ان يتخذوا نماذج للأجناس ، لكنهم لم يجدوا فى الواقع من تجتمع فيه صفات نموذج لجنس من الأجناس ؛ بينما المعلوم فى علم الحيوان أن الوراثة فى الأجناس تسرى على نسق واحد فى الصفات التى تميز جنساً على آخر(٥) .

وقد لوحظ فى سجلات القياسات التى ضبط فيها طول القامة منذ منتصف القرن الماضى ، أنه قد حصلت زيادة فى طول القامة بمعدل بوصة واحدة ، فى أغلب الشعوب الأوربية ؛ وتحقق أن أولاد المهاجرين الناشئين فى الولايات المتحدة يزيدون آباءهم طولا . وكذلك لوحظ ان شكل الأعضاء يتأثر فى الأفراد حسب مهنهم والاوضاع التى تفرضها هذه المهن على أعضائهم وأبدانهم ، فالحداد والموسيقى والعامل ، الذى يضطر أن يتخذ وضعا جسمياً خاصاً بحكم عمله ، والذين يسيرون حفاة ، كل هؤلاء تتحور اعضاؤهم حسب طبيعة عملهم وحياتهم . وحتى شكل الرأس ، لوحظ أنه يتخذ فى الأبناء شكلا يختلف عن شكل رؤوس آبائهم عندما ينشأون فى بيئة تختلف عن

(٥) The Making of Man ، ص ١١٣ ـ ١٢٠ .

بيئتهم[٦] . ومع أن هذه التغيرات قد تبدو جزئية وتافهة بالنسبة لقصر الزمن الذى لوحظت فيه ، غير أنها ربما صلحت دليلا على تبدل الأشكال بتبدل البيئات وتغير الأحوال الصحية والمعاشية ، لو طال الزمن[٧] .

وحاول بعض علماء الانسان ، أن يدرس التفاوت بين أصناف البشر من ناحية قربها أو بعدها عن اسلافها الحيوانات ، فى الخصائص التى أتخذت أساسا للتفريق بينها . فبخصوص شكل الأنف مثلا ، على اعتبار أن الحيوان الذى تطور منه الانسان كان ذا أنف أفطس ، لوحظ أن للزنوج والأستراليين الأصليين أنوفاً أقرب اليه ، بينما المغول والأوربيون يبتعدون عنه بأنوفهم البارزة المستقيمة . أما بخصوص الشفاه مثلا ، فلوحظ العكس ، أي أن الأوربيين بشفاههم الرفيعة يكونون أقرب اليه ، ومن ثم يليهم المغول ، بينما يبتعد عنه الزنوج بشفاههم الغليظة البارزة . وبخصوص الشعر الذى ينبت على الجسم ، باعتبار أن الحيوان مشعر ، يكون الأوستراليون الأصليون فالأوربيون وشعوب آسية الغربية عموما أقرب اليه بنسبة ما ينمو فى أجسامهم من الشعر ، بينما يكون الزنوج فالمغول أبعد عنه بأجسامهم الملساء التى لا ينبت فيها شعر .

(٦) Marret ، ص ٧٥ .
(٧) The Making or Man ، ص ١٣٢ ـ ١٢٣

وهكذا يظهر أن تقدم الانسان عن سلفه الحيوان لم يظهر فى أصناف البشر ، فى خصائص موحدة تميزها بعضها عن بعض ، فى تدرجها عن الحيوانية ، وانما يظهر هذا الأختلاف على أساس اختلاف الاختصاص الذى الزمت به بحكم ظروف حياتها وبيئتها ؛ مثل اختصاص الزنجى فى اللون القاتم وفى طول الساق بالنسبة للجذع ، واختصاص المغولى بانعدام الشعر فى جسمه ، واختصاص سكان أوربه وآسية الغربية فى درجات انكشاف اللون وانتصاب الأنف واستقامته . واذاً ، فلا سبيل لتصنيف الأجناس على أساس هذه الخصائص ، باعتبار تدرجها من الحيوان .

ودرس علماء الحيوان والانسان كذلك ، الفوارق بين أصناف البشر ، من حيث وظائف الأعضاء ، باعتبار أن الفوارق بين الأجناس فى عالم الحيوان ، لاتقتصر على اختلاف ظواهر الأجسام وانما يجب أن يرافق هذا الاختلاف ، بعض الاختلاف فى وظائف الأعضاء بين جنس آخر ، وتماثلا فى هذه الوظائف فى الجنس الواحد ، فانتهوا الى أن وظائف الأعضاء ، سواء الدماغ أو الحواس أو الأطراف أو الغدد أو غيرها ، تؤدى فى أصناف البشر الوظائف عينها وفى كيفية واحدة ؛ ولم يجدوا فى ذلك ما يدل على اختلاف أصلي بين البشر يصح معه القول بانهم يختلفون فى الجنس .

وعلى ذلك ، فان القسم الأعظم من علماء الحيوان والانسان ــ ان

لم يكن جلهم ـ ممن محص موضوع الاختلاف بين أصناف البشر ، يرجع الانسان الى أصل واحد ، باعتبار ما يبدو من التشابه الواضح بين هذه الأصناف ، فى تركيب الأعضاء ووظائفها وفى أعمال الدماغ ؛ وكذلك فى قدرتها على التزاوج والتناسل فيما بينها ، بينما الثابت فى علم الحيوان ، أن جنسين مختلفين يندر أن يتزاوجا أو يتناسلا ، وان تناسلا فان ذريتهما تفقد قابلية التناسل ، كما هو الحال فى الخيل والحمير عندما تتناسل فتلد البغال العقم .

والعلة فى الاختلاف الظاهر بين أصناف البشر ، انما مرجعها ـ فى رأيهم ـ اختلاف البيئات وملاءمة الانسان لها حسب ناموس انتقاء الأصلح ، كما هو الحال فى ملائمة الجنس الأسود للمناطق الحارة ، والأبيض للمناطق الباردة ، والأسمر أو الأصفر أو الأحمر للمناطق المعتدلة بحسب تفاوتها فى درجة الاعتدال وفى المناخ بوجه عام(٨) . وبتأثير البيئة عندما كان الانسان تحت تأثيرها المحض فى حياته الهمجية ـ فى مدى عشرات الألوف من السنين ـ تجلت الاختلافات المشهودة بين أجناس البشر ، فى اختلاف شعر الرأس والعيون فى الشكل واللون ، وفى اختلاف لون البشرة والقامة وتناسق الأعضاء وتقاطيع الوجه .

وقد درس العلماء موضوع « العنصرية » فى ضوء الوضع الراهن

(٨) Marret ، ص ٨٣ ـ ٨٥ .

فى أوربة ، فافترضوا أن الشعوب الأوربية الحاضرة ترجع الى ثلاثة عناصر رئيسية ، عدا العنصر الذى قطن أصقاعها الجنوبية فى العصور الحجرية الأولى ولم يتوصل العلماء الى معرفة أصله .

وأول هـذه العناصر ، العنصر الذى استوطن حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويمتاز بالرأس البيضوى والبشرة السمراء والشعر الأسود والعيون الغامقة اللون والقامة المعتدلة ، والذى وجدت بقايا جماجمه وآثاره فى فرنسة وبريطانية والمانية وبلاد السويد ، مما يدل على أنه استوطن فى أطراف هذه البلدان منذ قديم الزمان . ويقول « سـرجى » انـه يتـألف من اربـع شـعب ؛ الأولى ، اسـتقرت فى شـمال أفريقيـة ، واليهـا يرجـع قدمـاء المصـريين والليبيين والبـربر ؛ والثلاث الأخـرى ، هاجرت الى أوربـة عن طـريق جبل طارق وصقلية وكريت وأرخبيل بحر ايجة ، فاستوطنت اسبانية وايطالية وفرنسة وبلاد اليونان ، ومنها توافدت الى أطراف الشمال .

وثانيهما ، وهو العنصر « الكلتى » أو « الألبى » ويمتاز باستدارة الرأس واعتدال القامة وبدانتها ، وبعيونه الشهب وشعره الكستنائى اللون . ويعتقد العلماء أنه « آري » هاجر من آسية ، فاستوطن سهول أواسط أوربة وانتشـر فى مختلف أصقاعها ، مثل شـمالى ايطالية وفرنسة وبلجيكة وجنوب المانية حتى بلغ السويد ، وهو الغالب فى بلاد النمسة وروسـية .

أما العنصر الثالث ، فهو « النوردي » أو الشمالى ، ويمتاز بامتداد القامة واستطالة الرأس والوجه ، وبالعيون الزرق والشعر الأشقر . ويرى فريق من العلماء ، أنه نشأ فى أوربة الشمالية . ويقول فريق آخر ، أنه يرجع فى الأصل الى العنصرين الآري والكلتي . وهو الغالب فى الأصقاع الشمالية الباردة ، لما له من المناعة ضد أمراض البرد .

ولقد ثبت الآن ان هذه العناصر ، حتى اذا صح أنها تختلف فى الأصل ، فقد امتزجت خصائصها بحيث لم يبق فى الامكان العثور على نموذج صادق لأي منها فى انحاء القارة الأوربية كلها . ويرى القارىء فيما مرّ بيانه ، انها ترجع جميعاً الى شعوب جاءت فى الأصل ، من أفريقية وآسية .

وخطأ التمييز بين العناصر المفروضة ، يتجلى لنا أيضاً ، عندما نمعن النظر فى الحدود السياسية القائمة فى أوربة الحالية ، فى ضوء انتشار العناصر فيها وباعتبار اللغة مظهرا من مظاهر العنصرية ، كما يعتبرها فريق من العلماء . ففى شبه جزيرة ايبرية مثلا ، وسكانها أقرب الى النقاوة لأنهم أقرب الى العزلة بالنسبة الى أنحاء أوربة الأخرى ، نجد وحدتين سياسيتين هما اسبانية والبرتغال ، وأربع لغات هي البرتغالية والاسبانية والباسكية والقطلونية ؛ ونجد جبال البرنة تشطر المتكلمين بالباسكية الى شطرين ، أحدهما فرنسي والآخر

اسباني • وفى أواسط أوربة ، نجد المتكلمين بالألمانية موزعين بين ألمانية والنمسة وسويسرة وجيكوسلوفاكية وبولندة وايطالية ، وهم يختلفون اختلافاً كبيراً حسب فرضيات الجنس ؛ فالذين يقطنون جنوب المانية وسويسرة والنمسة أقرب الى العنصرين الألبي والكلتى اللذين ترجع اليهما الأقوام المتوطنة فى فرنسة وبوهمية وبولندة ، وصلتهم بالعنصر التيتونى أو النوردى ، الذى يرجع اليه سكان ألمانية الشمالية ، ربما تكون أوهى من صلة العناصر التى يتألف منها مواطنو الولايات المتحدة ، بعضها ببعض •

واذاً ، فان أخذ الوحدات الاجتماعية أو السياسية القائمة فى أوربة الحاضرة باعتبارات العنصرية ، والاستدلال على ذلك باختلاف الهيئات أو الاشكال أو باختلاف اللغات واللهجات ، أمر لا يقوم على أساس من العلم ؛ لأن هذه المجتمعات والوحدات السياسية تقوم فى الواقع على أساس المواطنة ، وهي رابطة جغرافية اقتصادية تاريخية سياسية ولغوية ، وقد تكون دينية أيضاً ؛ وبها تقوم الرابطة القومية التى لا صلة لها بوحدة الجنس ، وانما أساسها وحدة الثقافة التى ينشأ عنها نسق فى التفكير والمشاعر والمثل يغلب على المجتمع ويميزه عن غيره •

* * *

ويعتقد الذين يرجعون المجتمع الى وحدة الجنس ، أن الأجناس تختلف فى قابلياتها العقلية وفى ملكاتها الذهنية ، اختلافها فى مظاهر

أجسامها . وقد دقق علماء الانسان هذا الرأي ، فى ضوء القوائم التى سجلوا فيها معدلات حجوم الجماجم وزنة المخ ، وكذلك دققوا تلافيف المخ لمجموعات من مختلف أصناف البشر ، فكانت النتيجة أنهم لم يجدوا فيها ما يؤيد تميز أصناف البشر فى القابليات العقلية وفى الملكات الذهنية والنفسية على أساس التفاوت فى حجم الجمجمة أو فى زنة المخ أو تلافيفه .

فبينما استطاع « مارتن » (Rudolf Martin) ، أن يستخرج معدلات لحجم الجمجمة فى أصناف عديدة من البشر ، وأن يلاحظ تفاوتاً فيها بين معدل حجم الجمجمة فى شعوب أوربة وآسية الشرقية وجزر المحيطين الهادى والأطلسى من جهة ، ومعدل حجم جماجم بعض الأقوام المتأخرة مثل الأوستراليين الأصليين والأندمانيين (Andaman) والفيديين (Veddas) من جهة أخرى ، كما يتبين فى الجدول رقم (١) ؛ وكذلك أن ينظم غيره نسباً للتفاوت فى حجم الجماجم فى عدد من الأقوام ، كما يبدو فى الجدول رقم (٢) ؛ غير أن تدقيق الجداول التى أعدت لهذه الأغراض دلّ على أن لا ارتباط هنالك بين مقلم الأقوام فى الحضارة والثقافة وبين التفاوت بينها فى حجم الجمجمة ، كما يظهر فى الجدول رقم (٣) ؛ ولقد لوحظ كذلك ان التفاوت كبير فى حجوم جماجم كل صنف من أصناف البشر ، وهو يتراوح ، كما يقول « مارتن » بين ١١٠٠ سم^{٣} و ١٧٠٠ سم^{٣} ،

واذاً ، فلا محال للتفريق بين الأقوام على أساس التفاوت فى حجم جماجمها[٩] . وفى الواقع ، أن جمجمة لرأس انسان لو قدمت لأخصائى ، لما استطاع أن يقطع بالجنس الذى تعود اليه .

جدول رقم (١) لحجم الجمجمة بالسنتيمترات المكعبة

	للرجال	للنساء
الاوربيون وسكان آسية الشرقية وجزر المحيطين الهادى والاطلسى	١٤٥٠	١٣٠٠
والاميركيون	١٣٤٧	١١٨١
الفيديون	١٢٥٠	١١٣٩
الأندمانيون	١٢٨١	١١٤٨
الأوستراليون الأصليون		

جدول رقم (٢)

النسبة المئوية للجماجم التى حجمها دون ١٢٠٠ سم٣

الهوتنقونيون	الأوستراليون الأصليون	الجرمان	الصينون
٠/٠٥١	٠/٠٤٥	٠/٠٨	٠/٠٢

النسبة المئوية للجماجم التى حجمها يزيد على ١٣٠٠ سم٣

٠/٠١٦	٠/٠٢٨	٠/٠٧٥	٠/٠٩٢

جدول رقم (٣) لمعدل حجم الجمجمة بالسنتيمترات المكعبة

اسم القوم	معدل السعة بالسنتمترات المكعبة
قبائل البكمى (Pygmy)	١٦٠٠
الجاويون	١٥٩٠
قبائل « الآما » (Ama)	
« والزوما » (Xoma)	١٥٧٠
الأسكيمو	١٥٦٣
قبائل الكافر (Kafir)	١٥٤٠

(٩) Ginsberg ، ص ٦٤

اليابانيون	١٤٨٥
العرب	١٤٧٤
قبائل « الكلموك » (Kalmuk)	
البدوية	١٤٦٦
الصينيون	١٤٥٦

وحاول علماء الانسان أن يستخلصوا شيئاً من تدقيق التفاوت بين الأقوام فى زنة المخ • وبالرغم من تعسر الحصول على عدد كاف من النماذج فى هذا الخصوص ، فقد أعد العالم الفرنسى « توبينار » (Paul Topinard) معدلات لعدد من الأقوام والشعوب ، كما يظهر فى الجدول رقم (٤) ؛ ولكنه لاحظ فى الوقت عينه تفاوتاً كبيراً بين أفراد كل قوم فى زنة الدماغ ، فقد تراوح الوزن لزنوج الولايات المتحدة الاميريكية مثلا بين ١٠١٣ غرام و١٥٨٧ غرام ، ولليابانيين فيها بين ١٠٦٣ غرام و ١٧٩٠ غرام • ومع ذلك فقد أثبت التحقيق أن لاصلة مطلقاً بين زنة المخ ورقي الامة أو ثقافتها كما يتبين من الجدول رقم (٤) • وقد اشار « مارتن » فى هذا الخصوص ، الى أن قبائل البشيرا* (Peschera) ، وهي قبائل همجية أقرب الى الحيوان منها الى الانسان ، يقرب معدل زنة المخ فيها من معدل زنته لدى الأوربيين •

جدول رقم (٤) لمعدل زنة المخ بالغرامات

الصينيون	١٤٢٨
قبائل البوريات	١٣٨٠
اليابانيون	١٣٦٧
الآنياميون	١٣٤١
الأوربيون	١٣٦١
زنوج اميركة الشمالية	١٣١٦

* وهى من القبائل المغولية البدائية •

ومما يجب ملاحظته بخصوص هذه المقاييس والنسب والجداول جميعها ، أنها لأقوام ولشعوب لا لأجناس ؛ وان المعدلات فيها مأخوذة من عدد محدود لا يتجاوز عشرات المئات فى حين أن الاحكام التى تبنى عليها تخص عشرات الملايين من البشر . وبالرغم من ذلك كله ، لم ير فيها العلماء دليلا يعزز الرأي القائل بوجود أجناس من البشر تتفاوت فى قابلياتها العقلية وملكاتها الذهنية . ومما شجعهم على نبذ الرأي القائل باعتبار حجم الجمجمة وزنة المخ مقياساً للملكات والمواهب ، ما تبين لهم من ان كثيرا من جماجم الهمج وأدمغتها تفوق فى حجمها وزنتها جماجم وأدمغة المفكرين وعظماء الرجال ؛ وكذلك ما ظهر لهم من انه اذا ما ضبطت النسبة بين زنة الجسم وحجمه وزنة المخ وحجم الجمجمة ، تضاءلت كل الفروق الظاهرة بين الناس فى هذا الخصوص .

ودرس علماء الانسان كذلك ، مسألة التفاوت فى دقة تلافيف المخ ، ومع أن عدد النماذج فى هذا الخصوص أيضاً محدود كما هو فى مسألة حجم الجمجمة وزنتها ، فقد لاحظ علماء الانسان أن التفاوت بين أصناف البشر ليس أقل من التفاوت بين أفراد الصنف الواحد . ولاحظوا كذلك أن جميع درجات التفاوت فى تلافيف المخ موزعة بنسب تكاد تكون متساوية فى كل قوم وشعب[١٠] .

(١٠) Ginsberg ، ص ٦٧ .

وتحرى علماء النفس درجة الصواب فى الرأي القائل بتفوق بعض الشعوب على غيرها فى قابليات الاحساس ، كالسمع والبصر والذوق والشم والشعور ، فلم يجدوا تفاوتا حقيقيا فى هذا الشأن وانما تبين لهم أن التفاوت الظاهر مرجعه الاعتياد والممارسة والتركيز ليس غير .

فقد أجريت فحوص لمجموع من الأقوام ، اشتهرت بقوة النظر أو قوة الشم مثلا ، وهي الأقوام التى تمارس الصيد ، فاثبتت المقاييس أن لا وجود للتفاوت بينها وبين غيرها ، وانما تبين أن الذين يمارسون الصيد قد أكتسبوا بالممارسة ، القدرة على تعيين موقعه من بعد شاسع(١١) . ويقول « بوآز » (Franz Boas) أن الوراثة ان كان لها أعظم الأثر فى اختلاف أصناف البشر فى المظاهر الجسمانية ، فان البيئة الطبيعية والمؤثرات الاجتماعية هي التى تؤثر فى كيفية تأدية الذهن والحواس وظائفها ، وان الناس فى مجتمع معين يميلون تحت مؤثرات البيئة الواحدة ووحدة المؤثرات الاجتماعية الى التماثل بخصوص تأدية الذهن والحواس وظائفها(١٢) .

وقد درست مسألة الاختلاف المفروض بين الأجناس فى الذكاء والادراك ، بوساطة الفحوص الخاصة ، لمعرفة ما اذا كان التفاوت فى

(١١) The Making of Man ، ص ١٣٠

(١٢) المرجع عينه ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

الذكاء أصلي أم طارىء • ورجح علماء النفس ، أول الامر ، أن يكون الاختلاف أصلي ؛ ولكنهم رجعوا الآن عن رأيهم هذا ، بعد أن تبين لهم ان نتائج هذه الفحوص تتأثر تأثراً أساساً باختلاف ظروف الأفراد النفسة والبدنة ، وباختلاف السئات الطبيعية والاجتماعية وبطبيعة العمل الذى نشأوا عليه • وقد ثبت الآن أن نتائج فحوص الذكاء لاتتأثر بصحة الفرد وبغذائه وما يصيب من الراحة والنوم فحسب ، وانما هي تتأثر أيضاً بمفاهيم اللغة وأسلوب التعبر فيها وبالتقاليد والعادات وبطبيعة الحياة الاجتماعة ، مدنية أم ريفية ، زراعية أم صناعية ، علمية أم فنية ، وبمسائل أخرى لا تدخل تحت حصر • فاذا كان فى المستطاع ضبط الظروف الفردية فى هذا الخصوص ، فان من العسير جدا التغلب على العوامل الأخرى بحيث يكون فى الامكان التعويل على مقاييس الذكاء فى التميز بين الشعوب ؛ خصوصاً وقد تبين أن أفراد الشعب الواحد يختلفون باعتبار الذكاء باختلاف المحلات والمدارس والأعمال ، وأن سكان القرى والأرياف فى كل شعب ، هم على العموم أبطأ فهماً وحركة من سكان المدن ، وأن البدوي أو الريفي الذى يظهر فى حياة البداوة أو الريف ذكاءاً ممتازاً بالقياس لساكن المدينة تغلب عليه البلاهة والشرود فى أوساط المدن وشوارعها المزدحمة التى تموج بالحركة وتطغى فيها السرعة • واذاً فالذكاء يتصل اتصالا وثيقا بالوسط الطبيعى وبالعوامل الاجتماعة

والثقافة ، وليس من الصواب المقارنة بشأنه بين مجموعات من البشر تختلف اختلافا كبيرا بالنسبة لهذه العوامل

وقد اعتاد المفكرون والكتاب ، منذ قديم الزمان ، أن يميزوا بين الأجناس فى السجايا والطباع • ومع أن علم النفس لم يتقدم حتى الآن فى دراسة هذا الموضوع دراسة وافية ، الا أن التناقض بين الآراء فى هذا الخصوص ، باختلاف الاشخاص والظروف والأزمان ، يجعل من الصعب التعويل عليها ، لا سيما وأن هذه الآراء اعتمدت فى الأصل على ملاحظات عابرة لعدد محدود من الأفراد ومن ثم اطلقت على أقوام قد يتجاوز عددها مئات الملايين • وقد تكون هذه الآراء ، من جهة أخرى ، استخلصت من ملاحظة خليط من الأفراد ولكنها اطلقت على جنس من البشر • فمن ذلك مثلا ، قول « كين »[١٣] (E.R.E. Keane) فى العنصر المغولى الذى يزيد عدد نفوسه على ثلث سكان المعمورة ، بانه يمتاز بالتكتم والحذر وبالخشونة والشراسة والفتور وان وراء لطفه وتأدبه الظاهرين غرور وكبرياء ، وأنه تغلب فيه روح المقامرة والمجازفة • بينما يقول « سليكمان »[١٤] (Edwin R.A. Seligman) أنه يكفى المرء أن يلاحظ جماعة من الحماليين الصينيين وهم يسعون للعمل ، أو جمهرة من الصينيين جمعتهم

(١٣) Ginsberg ، ص ٧١ •

(١٤) Outline of Modern Knowledge ، ص ٤٥٩ •

الصدفة ، أو عمالا اثناء العمل ، ليقتنع بان الصينيين يفوقون أهل أوربة الشمالية فى سرعة الهياج وقوة العاطفة ، وان مظهرهم ليخالف على خط مستقيم ، الفكرة غير الممحصة الشائعة عنهم بين الناس ، بانهم قوم جامدو العاطفة • وكثير من الكتاب قالوا ان شعوب البحر الأبيض المتوسط تمتاز بشدة الميل الى الالفة والاجتماع ، بينما يصف « ماداریاگا » الكاتب الاسبانى قومه فى كتابه (*and Spaniards Englihmen, Frenchmen*) يقول « ان الاسبانى هو نقيض الاجتماع ، فاذا أراد الرفيق فانما يريده ليتحسس حدود شخصيته بمجابهة الشخصيات الأخرى • انه لايقصد الاجتماع وانما يقصد شخصيات الآخرين • وهذا هو منشأ الشعور الذى يحسه المرء بين جماعة من الاسبان ، وكأنه بين صخور صلدة جارحة • » • ومن ذلك أيضاً ، وصف الجرمان بأنهم « بطيئوا الانفعال محدودى التصور ، لكنهم أهل مثابرة وكدح واتقان وتمسك بالنظام • » ؛ وقد كان الرومان يرون أن البربرية من صفات الجرمان الاصلية وما دروا أنهم سيخرجون بعد حين أعظم رجال الفلسفة والفنون • وقال ابن سعيد المغربى ، أديب طليطلة يصف الأوربيين بان مزاجهم بارد ولا يبلغون الرشد ، وبان لهم ضخامة فى الجسم ولكنهم ينقصهم حدة الذكاء ورجاحة العقل[١٥] • وكانت شعوب المانية حتى قبل قرن

(١٥) Haldane. ، ص ١٢٨ •

ونيف ، مضرب المثل فى الفردية والشقاق والنفرة من النظام ولكنها اصبحت بعد حين مضرب المثل فيما هو عكس ذلك • ولقد هزأ الأوربيون ، قبل ما يقرب من قرن ، بعزم اليابانيين على مجاراتهم فى حضارتهم الصناعية التى حسبوا أنها لا تأتلف وطباع شعوب الشرق ، ولكن نهضة اليابان الصناعية أصبحت بعد حين مضرب المثل فى مدى التقدم وسرعة الانجاز • ووصف « ربلي » (W. Repley) فى كتابه (*The Races of Europe*) ، الأقوام السلافية ، قبل ثورة أكتوبر ، بأنها صبورة غير فعالة ومحافظة مستسلمة ؛ بينما وصفها غيره ، بعد هذه الثورة ، بأنها ديمقراطية وتميل بطبعها الى الشيوعية •

وقد زعم غلاة التيتونية ، أن جل المكتشفين والمخترعين من العنصر النوردى ، فأثبتت تحقيقات « ألس » (Havelock Elis) فى كتابه (*A study of British Genius*) ، أن أعظم رجال الانكليز ومكتشفيهم كانوا من ذوى البشرة السمراء والشعر الأسود ؛ وكذلك ثبت أن قليلاً من مشاهير الأميركان كانوا شقراً وأكثرهم من ذوي الرؤوس المستديرة ، بخلاف ما هو شائع من أن الفضل فى تأسيس الولايات المتحدة الأميركية وعمرانها يرجع الى النورديين ؛ وتحقق أيضاً أن أعظم مفكري الألمان ونوابغهم أمثال « لينتز » (Leibniz Freiherr Von) و « شوبنهاور » و « كانت » و « بتهوفن » (Ludwig Van Beethoven) و « شيلر » (Johann Schiller)

و « غوته » كانوا جميعاً أقرب الى الكلتين فى شكل الجمجمة منهم الى التيتون(١٦) .

وما يصح فى هذه الأحكام الخاصة بامزجة الأجناس وطباعها ، يصح كذلك فى جميع الأحكام التى تصدر فى هذا الخصوص عن ميزات الأقوام بوجه عام . فقد حاول كثير من الكتاب أن يخصوا الأقوام بامزجة أصلية ، مثل درجة تقبلها المؤثرات الخارجية ومبلغ نشاطها وحدة احساسها ، وتدرجوا من ذلك الى القول بان النظم والمنظمات فى كل مجتمع تتأثر بالمزاج القومي الذى يعطى التقاليد والأعمال العامة والسياسة القومية طابعها الخاص . ومن هذا القبيل القول بان الانكليز مثلا ، يمتازون بالنشاط والابداع والاذعان الى القانون والاحساس بالمسؤولية وبالميل الى الاعتدال والمصالحة ؛ وأن الفرنسيين يتصفون بحدة الطبع وسرعة الخاطر وسعة الخيال والميل الى الألفة والاجتماع ؛ بينما أثبتت تحقيقات العلم بان فى كل أمة أصنافاً من الأمزجة لا تختلف باختلاف ضروب المعيشة ، كالحياة القروية أو الريفية أو حياة المدينة التى تغلب فيها التجارة أو الصناعة فحسب ، وانما هذه الأمزجة تتبدل بتطور المجتمع على مرور الزمان .

وهكذا انتهى البحث فى هذا الخصوص الى نبذ الرأي القائل باختلاف الشعوب فى الادراك والذكاء والاحساس والأمزجة اختلافاً

(١٦) Ginsberg ، ص ٩٠ .

أصلياً متصلاً باختلافهم فى الجنس ، ورجح الرأي القائل بتأثر كل هذه الخصائص بالعوامل الجغرافية والاقتصادية والسياسية بوجه عام ، وهي تخضع لأحكام التطور فتجاريها المدارك والأمزجة والطباع فى تطورها الدائم

* * *

ويؤدى بنا الفراغ من هذا الموضوع ، الى المسألة الثالثة ، وهي الأكثر خطورة . فاننا حتى بعد أن نسلم بان الأجناس ترجع جميعها الى أصل واحد ، وأنها لا اختلاف أصلي بينها فى الملكات والأمزجة والطباع ، يبقى علينا أن نناقش مسألة التفاوت بين أصناف البشر فى القدرة على انشاء الحضارة ، فى ضوء الحقائق التاريخية وفى حدود الواقع .

فقد فسر البعض ، تفاوت الأقوام فى درجات الارتقاء وفى الثقافة باختلافها فى الملكات الطبعية ؛ فقالوا ان الزنوج مثلا ، ليس لهم استعداد طبعي لانشاء الحضارة . فهل لهذا الرأي أساس فى العلم ؟

يقول « كنزبرك » فى هذا الخصوص ، اننا لو جابهنا أحد الرومانيين بالقول ان البرابرة الجرمان سوف يقومون الحضارة الأوربية بعد بضعة قرون وينجبون أعظم الفلاسفة والعلماء والفنانين والمخترعين ، لما وجد مثل هذا الرأي حقيقاً بالمناقشة أصلاً ، لأنه كان يعتقد أن الطبيعة لم تؤهل هؤلاء البرابرة لغير حياة البربرية .

ويقول « ويلز »(H. G. Wells.)« ان أي شخص بعيد النظر لو استعرض العالم فى أوائل القرن السادس عشر ، لما رأى مفراً من القول بانه لن تمض بضعة أجيال حتى تنتهى السيطرة على العالم الى المغول ويدين كله بدين الاسلام »(١٧) . ولهذا ، فليس ممتنعاً

كما يقول كنزبرك ـ ان يبلغ الزنوج مستوى الشعوب المتقدمة فى الحضارة ، بعد بضعة قرون ، وهي ليست شيئاً يذكر فى تاريخ البشرية . خصوصاً وقد ثبت الآن ، أنهم وسائر شعوب أفريقية ، لا يرجع تأخرهم الى اختلافهم اختلافاً أساسياً عن بقية أصناف البشر ، وأنما يرجع هذا التأخر الظاهر الى عزلتهم والى تعرضهم لأمراض مستوطنة تؤثر فى الجهاز العصبي وفى قوى الادراك ولا تكسب المصاب بها مناعة ؛ وليس بعيداً ذلك اليوم الذى تباد فيه جراثيم هذه الأمراض فيستأصل أثرها ، وتجد الحضارة طريقها الى مجاهل أفريقية فترفع شعوبها الى سوية بقية الشعوب وتفتح امامها ابواب التقدم والارتقاء

وفسر البعض اندثار الحضارات باختلاط الأجناس المختارة بالأجناس المنحطه . ويقول « هوبهاوس » فى كتابه (*Development Social*) انه لو صحت آراء الشاعر الاغريقى « هوريس » (Horace) الذى تطيّر من اختلاط الاغريق بغيرهم ورأى فى ضياع

(١٧) *Outline of History* ، الجزء الثانى ، ص ٤٩١ .

نقاوة عنصرهم ضياعاً لمدنيتهم ، اذاً لما وجدنا تفسيراً لبلوغهم أوج التقدم فى أثينا ، عقيب ذلك ، بعد اتصالهم بالشعوب المحيطة بهم وامتزاجهم بها(١٨) .

وتحقق لدى علماء الآثار أن اختلاط الأقوام الأوربية وامتزاجها بعضها ببعض ، قد سبق بوادر الحضارة فى أوربة . ويقول « كوردن تشايلد » ، ان الجماجم التى وجدت فى بلاد الدانمارك وفى السويد ـ وهي ترجع الى الدور الحجرى الحديث ـ كانت خليطاً من جميع الأشكال ، ونسبة الجماجم مستطيلة الشكل فيها ، التى يمكن ان تنسب الى العنصر النوردى ، لا تزيد على ثلاثين بالمائة من مجموع ما وجد(١٩) .

وأتخذ البعض من أصول اللغة أساساً للتمييز بين الحضارات ، وقالوا ان الشعوب التى ترجع فى لغتها الى الأصل « الهندى الأوربي » هي التى انشأت الحضارة الأوربية ، وهي من شعوب الشمال . ومع أن علماء الآثار لم يتحققوا من مواطن اللغة الأصلية التى اشتقت منها لغات هذه الشعوب ، فرجح بعض الانكليز منهم ، أنها نشأت فى الأصل ، فى هضاب جنوب روسية ؛ ورجح البعض الآخر ان موطنها أوربة الوسطى حيث تقوم فى الوقت الحاضر ، بلاد النمسة

(١٨) Ginsberg ، ص

(١٩) المرجع عينه ، ص ٨٥ .

والمجر وبوهمية ؛ وقال آخرون أنها نشأت فى جهات من آسية ؛ فان « شريدر » (Eberhard Schrader) رجح أن يكون الشعب الذى وضع أصول هذه اللغة خليطا من شتات من القبائل والأفراد لا تربطهم وحدة العنصر(٢٠) .

وقال الذين يرجعون الحضارة الى أثر الأجناس « المختارة » ، أن الفضل فى نشوء حضارتي الاغريق والرومان ، يعود الى العنصر النوردى الذى اختلط بشعوب بلاد اليونان وايطالية . اما بخصوص حضارة الاغريق فمما لا ريب فيه ، أن قسطا كبيرا من الفضل فى قيامها يرجع الى ما اقتبسه الاغريق عن الايجيين ، وهم من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ وقد ثبت أن شعوب الشمال لما احتلت بلاد اليونان وجدت فيها شعباً متحضراً ، وقد أدى احتلالها الى أن تمر البلاد بفترة مظلمة دامت بضعة قرون . أما الرومان ، فقد تحقق لدى علماء الانسان ، أن سوادهم كان أول الأمر من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط ذوي الرؤوس المستطيلة ، وأنهم غلب فيهم فى عهد الامبراطورية ، العنصر الكلتى وهو ليس من النورديين على أية حال .

واذا أرجعت أصول الحضارة الأوربية الحاضرة الى الحضارات التى نشأت فى حوض البحر الابيض المتوسط ، واعتبرت حضارة الايجيين بدايتها ، فليس هنالك شك فى أن هذه الحضارة تبادلت التأثير

(٢٠) المرجع عينه ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

مع حضارة السومريين في « أور » وفي « كيش » ومع حضارة المصريين في وادي النيل ؛ وليس هناك ما يدل على أن هاتين الحضارتين كانتا أصليتين ، فلم تتأثرا بحضارات الشرق الأخرى .

وعلى ذلك ، نستطيع أن نقرر : اولا ، أن ليس هنالك أساس علمي لتفسير الحضارة على أساس الجنس ، لأن تفسيرا مثل هذا ، يفترض حدودا مميزة للأجناس البشرية في حين أثبت العلم أن الجنس النقي لم يكن له وجود في حياة الانسان المعروف ؛ كما وان هذا التفسير يلغي من حيث الأساس أثر البيئة الطبيعية والعوامل الاقتصادية في تقويم المجتمع ، وهو أمر يناقض ما أثبته العلم على وجه التحقيق . انيا انه ليس هنالك دليل على أن أمة من الأمم ، استطاعت ، وهي في عزلة عن الحضارة الانسانية ، أن تبدع حضارة أصلية ؛ وانما الواقع أن كل حضارة قامت نتيجة لتفاعل الثقافات الانسانية المختلفة ، وامتزاج المدنيات التي نشأت في مختلف البيئات ؛ ولقد كان التأخر وما يزال مظهرا من مظاهر العزلة وتجنب الاختلاط .

واذاً ، فالحضارة لم تكن ، في زمن من الأزمان ، من صنع أمة واحدة أو من اختصاص قارة من دون القارات ، وانما هي من خلق الانسانية ، ساهمت فيها الشعوب فتناقلتها بالتقليد وبالاقتباس ، وأضافت اليها ما استطاعت أن تبدعه بدافع الحاجة وبتأثير بيئتها الطبيعية وتحت ضغط العوامل التاريخية في مختلف أطوار حياتها .